الدرس الثامن عشر

زهده ﷺ : لا يَصْدُق أن يطلق وصف الزهد فعليًا إلا على من تيسر له أمر من الأمور ، فأعرض عنه وتركه زهداً فيه ، وقد كان نبينا ـ ﷺ ـ أزهد الناس في الدنيا ، وأقلهم رغبة فيها ، مكتفيًا منها بالبلاغ ، راضيًا فيها بحياة الشظف ، مع أن الدنيا كانت بين يديه ، ومع أنه أكرم الخلق على الله ، ولو شاء لوهبه الله ما يشاء من الأموال والنعم.

وقد ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره عن خيثمة أنه قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك من خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيًا قبلك ، ولا نعطي أحدًا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ، فقال : ((اجمعوها لي في الآخرة)).

وأما حياته ـ ﷺ ـ ومعيشته فعجب من العجب ، يقول أبو ذر رضي الله عنه : (كنت أمشي مع النبي ـ ﷺ ـ في حرَّة المدينة ، فاستقبلَنا جبل أحدٌ ، فقال : ((ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا ، تمضي علي ثلاثة وعندي منه دينار ، إلا شيئًا أرصده لدين ، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه)) ، وكان يقول : ((مالي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها)) .

طعامه ولباسه ﷺ : أما طعامه ، فقد كان يمر عليه الشهر ، والشهران ، والثلاثة وما توقد في بيته ـ ﷺ ـ نار ، وإنما هما الأسودان : التمر والماء ، وربما ظل يومه يتلوى من شدة الجوع وما يجد ما يملأ به بطنه ، وكان أكثر خبزه من الشعير ، وما أُثر عنه ـ ﷺ ـ أنه أكل خبزًا مرققًا أبدًا ، بل إن خادمه أنس ـ رضي الله عنه ـ ذكر أنه لم يجتمع عنده ـ ﷺ ـ غداء ولا عشاء من خبزٍ ولحم إلا حين يأتيه الضيوف .

ولم يكن حاله في لباسه بأقل مما سبق ، فقد شهد له أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بزهده وعدم تكلُّفه في لباسه ، وهو القادر على أن يتَّخذ من الثياب أغلاها ، يقول أحد الصحابة واصفاً لباسه : أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ أكلِّمه في شيء فإذا هو قاعد وعليه إزار قطن غليظ .

ودخل أبو بردة ـ رضي الله عنه ـ إلى عائشة أم المؤمنين ، فأخرجت كساءً ملبدًا وإزارًا غليظًا ، ثم قالت: (قُبض رسول الله ـ ﷺ ـ في هذين الثوبين) ، وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: (كنت أمشي مع رسول الله ـ ﷺ ـ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية).

ولم يترك ـ ﷺ ـ عند موته درهمًا ، ولا دينارًا ، ولا عبدًا ، ولا أمة ، ولا شيئًا ، إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضًا جعلها صدقة ، قالت عائشة رضي الله عنها : (توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وما في رفِّي من شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير) ، ومات ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودرعه مرهونة عند يهودي مقابل شيءٍ من الشعير .